

المنهج والنظرية في مدرسة فرانكفورت

أ.د. حسن حماد

1- مدرسة فرانكفورت بوصفها فكر أزمة:

ظهرت مدرسة فرانكفورت إلى حيز الوجود - كما يذكر مارتن جاي - عندما صدر قرار من وزير التربية والتعليم بألمانيا في 3 فبراير 1923 بالموافقة على إنشاء 'معهد فرانكفورت للأبحاث الاجتماعية، وهو الاسم الأصلي لمدرسة فرانكفورت، لأن عبارة 'مدرسة فرانكفورت' لم تستخدم إلا في مرحلة متأخرة من تاريخ المعهد، وبالتحديد بعد عودة المعهد من منفاه الاختياري في أمريكا إلى فرانكفورت مرة أخرى عام 1950⁽¹⁾.

وهذا التاريخ (3 فبراير 1923) يحمل دلالات سياسية وفكرية واجتماعية بالغة الخطورة، فهو يجيب في أعقاب عدة أحداث تاريخية فاصلة في تاريخ البشرية: الحرب العالمية الأولى، بتداعياتها المختلفة، النجاح غير المتوقع للثورة البلشفية في روسيا، مقابل الفشل الدراماتيكي للأحزاب الاشتراكية والشيوعية في ألمانيا وأوروبا⁽²⁾.

وقد كان لفشل الأحزاب الاشتراكية والشيوعية أصداء ونتائج مؤثرة داخل ألمانيا وخارجها. ويكفي أنه هيا الفرصة لهتلر كي ينقض على السلطة في ألمانيا، واسم هتلر يعنى لمفكرى فرانكفورت، ولكل مثقفي ذلك العصر: الاضطهاد، القمع، معسكرات التعذيب، التصفية الجسدية، النفي، التشريد... إلخ.

وقد اكتملت صورة هذا العصر الظلامي في 22 أغسطس 1939 بتوقيع اتفاق هتلر - ستالين، لقد كان ذلك نهاية عصر، وبالنسبة لكل هؤلاء المفتونين بسحر الماركسية، والذين راودهم حلم التحرير يعد نوعاً من اليأس العميق⁽³⁾.

ولاشك في أن هذه الأحداث قد تركت بصماتها الواضحة على فكر مفكرى مدرسة فرانكفورت وامتزجت بسائر آرائهم السياسية والفكرية وجعلتهم يراجعون كثيراً

من مسلمات الفكر الماركسى . ويحاولون فى مقابل ذلك إيجاد صياغة جديدة ،لنظرية نقدية، تمزج بين الماركسية والهجلية والفرويدية عبر نص متعدد ومتفتح يسعى إلى التحرر فى كافة أبعاده السياسية والاجتماعية والاجمالية، ويكون محوره انفراد اللاممثل، الذى لا يكف عن مراجعة أطروحاته الفكرية، ولا يتوقف عن نقد وسلب ما هو قائم .

هذا النص تحديداً هو ما أطلق عليه مفكرو مدرسة فرانكفورت اسم ،النظرية النقدية، والنظرية النقدية، هى الصياغة النظرية التى تعبر عن المضمون الفكرى الذى تبناه مفكرو مدرسة فرانكفورت .

وفى هذه الدراسة سوف نقوم بتحليل معنى ووظيفة النظرية النقدية كما ظهرت عند فلاسقتها الأرائل خاصة هوركهايمر وماركيوز وأدورنو.

2- معنى النظرية النقدية :

ظهر مصطلح ،النظرية النقدية، بشكل مقصود عندما نشر هوركهايمر عام 1937 دراسة بعنوان: ،النظرية التقليدية والنظرية النقدية، وقد أوضح هوركهايمر أهمية بحثه فى المجال الدقيق للنظرية النقدية للمجتمع، وأشار إلى أن كلمة ،نقدى، كما تستخدم هنا أقرب إلى النقد الديالكتيكي للاقتصاد السياسى منها إلى النقد المثالى للعقل الخالص عند كانط⁽⁴⁾ . وفى العام نفسه نشر ماركيوز مقاله: ،الفلسفة والنظرية النقدية،، الذى أعيد نشره عام 1941 ضمن مقالات أخرى كتبها ماركيوز فى فترات مختلفة تحت عنوان شامل هو ،السلب، أو ،مقالات فى النظرية النقدية،، وقد شرح ماركيوز النظرية النقدية على أنها النظرية الاجتماعية القائمة على المنهج الجدلى ونقد الاقتصاد السياسى⁽⁵⁾ .

ويعد مقال ، النظرية التقليدية والنظرية النقدية، بمثابة الوثيقة الأساسية فى توضيح التوجه الفكرى للنظرية النقدية، والنظرية التقليدية كما يفهما هوركهايمر هى ما تعبر عنه بشكل واضح وصريح الإتجاهات الوضعية، فالإتجاه الوضعى كما يعبر عن نفسه فى علوم الإنسان والمجتمع يعالج نشاط الكائن البشرى على أنه شئ أو موضوع خارجى داخل إطار من الحتمية الميكانيكية، أما النظرية النقدية - المعارضة للوضعية - فهى ترفض النظر إلى الوقائع الاجتماعية على أنها أشياء، ومن ثم فهى

ترفض فكرة أن الظاهرة الاجتماعية تكون خارجية بالدرجة نفسها التي تكون عليها بالنسبة للعالم (6).

إن النظرية النقدية ترفض طابع الحياد الذي تتسم به النزعة الوضعية، وتحاول في المقابل أن تطرح فكراً لا يفصل بين النظرية والممارسة، أو بين الواقع والقيمة، والماركسية هي الفلسفة التي تعطي أفضل توضيح نظري لفهم الواقع الإنساني، وتفتح الطريق أمام إمكانية التحول العملي، وهوركهايمر في هذا الصدد يقر بانتمائه للماركسية حيث يقول: «عندما استولى هتلر على السلطة كان كثيرون يأملون في إمكان الثورة ويحتمل أن هذا الأمل كان مجرد حلم أو وهم، ولكن الذي لاشك فيه أن هذا الحلم أو الوهم قد سيطر على أعمالى منذ عام 1933. وقد قبلت المنهج الماركسي من حيث إنه يجزم بأن المجتمع الأفضل لن يتحقق إلا بالثورة» (7). وهكذا فإن مدرسة فرانكفورت في الأربعينيات من القرن الماضي اعتبرت نفسها ماركسية، وهذا يتضح من مقالات هوركهايمر وماركيوز الأولى، فقد كتب هوركهايمر عام 1938 يقول: «إن أى هجوم على الأيديولوجيا، إذا كان لا يقوم على تحليل الجانب الاقتصادي يعد نقداً متهاقناً، أو بالأحرى ليس نقداً على الإطلاق» (8).

والتوقع أن مدرسة فرانكفورت ذاتها قد اخفقت في الالتزام بهذه الطريقة القاطعة التي افترضها هوركهايمر للنظرية النقدية وبرغم العديد من القضايا الاقتصادية التي نوقشت من خلال أعمال المعهد، وبالرغم أيضاً من العمل المنهجي لبولوك في هذا المجال، إلا أن تحليل النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ظل ينصب بشكل متسع على قضايا البناء الفوقي، وكان يفتقر بشكل أساسي لمناقشة القضايا البحثية (9). على الرغم من أن الدارس للنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت لا يستطيع أن ينكر أن هناك خيطاً فكرياً واحداً يربط بين مفكرى هذه النظرية وأن هناك عدداً من القضايا والاهتمامات المشتركة، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أيضاً أن مفهوم النظرية النقدية يختلف من مفكر إلى آخر. فأدورنو مثلاً لم يكن مهتماً بالقضايا الاقتصادية، وكانت اهتماماته الأساسية تنصب على مجال الثقافة وخاصة الموسيقى والدراسات الجمالية.

والرؤية المستقبلية التي طورها أدورنو خلال تلك المرحلة لم تكن النظرية الاجتماعية الجدلية، ولكن بالأحرى ما أطلق عليه في كتاباته المتأخرة «الديالكتيك

السلبى، والذي يمثل نقداً لكل الاتجاهات الفلسفية والنظريات الاجتماعية، وهذا ما يجعل أفكاره تبدو وكأنها شكل من أشكال النسبية، أو النزعة الشكية التي تنكر إمكانية وجود أى قيم مطلقة أو مبادئ نهائية، على رغم أن أدورنو نفسه حاول أن يتجنب الانزلاق إلى مثل هذه النتيجة، بل إنه يذهب فى محاضراته الافتتاحية فى جامعة فرانكفورت عام 1931 والمسماة «حقيقة الفلسفة» إلى أن فلسفته «جدلية مادية»، ولكن حقيقة الأمر - كما بين بوك مورس Buck Morss فى كتابه «أصل الجدل السلبى» - إن فلسفة أدورنو ليست مادية جدلية بأى معنى من المعانى، وهو يختلف عن ماركس فى أن فلسفته لا تشمل مطلقاً على نظرية للفعل السياسى، وعلاوة على ذلك فهو يختلف عن هوركهايمر وماركيوز فى أنه قد تجاهل إيمانها بالإمكانية الثورية للطبقة العاملة، والواضح أن أدورنو ليس لديه أى اهتمام جاد بتحليل ماركس الاقتصادى، أو نظريته عن الطبقات، وهو يرفض كلية فكرة إمكان وجود نظرية أو علم للتاريخ، تلك التى تعد واحدة من أهم مبادئ الماركسية⁽¹⁰⁾.

إن هذه الاختلافات الواضحة بين مفكرى النظرية تجعل من الصعوبة أن نقدم تعريفاً محدداً - أو بلغة المناطقة تعريفاً جامعاً مانعاً - للنظرية النقدية، وكى نتغلب على هذه الصعوبة، فإنه يجب علينا أن نشير إلى بعض القضايا التى اجتمعت عليها اهتمامات النظرية النقدية مثل: نقد الوضعية، نقد النازية، مراجعة النظرية الماركسية، نقد ثقافة التنوير، ونقد مجتمع السلعة (أو التثيؤ)^(*).

3- علاقة النظرية بالممارسة:

إن النظرية النقدية كما تشكلت من خلال هوركهايمر ورفاقه قد حاولت نظرياً أن تعالج علاقة النظرية بالممارسة من منظور المادية الديالكتيكية، وهذا يتضح فى تأكيد هوركهايمر على أن قيمة النظرية إنما تتحدد من خلال علاقتها بالممارسة، وقد كتب عام 1934 يقول «إن قيمة النظرية تتحدد عن طريق علاقتها بالمهام التى تتبناها فى لحظة معينة من التاريخ، وعن طريق علاقتها بمعظم القوى الاجتماعية التقدمية»⁽¹¹⁾.

لقد كان هوركهايمر يشعر بأن الفكر النقدى يمكن أن يكون باعثاً، وعاملاً محرصاً فى تقدم النضال السياسى، فالنظرية النقدية يمكن أن تساعد على استثارة الوعى الذاتى للطبقة العاملة عن طريق إقامة نوع من التفاعل بين المنظرين

Theoreticians أو العناصر التقدمية في الحزب، وهؤلاء الذين في حاجة إلى وعى أكثر بالتناقضات الاجتماعية⁽¹²⁾.

وموقف هوركهايمر هنا يشبه إلى حد كبير موقف لوكاتش في كتابه «التاريخ والنوعى الطبقي»، فكلاهما يرى أن الموقف الخاص بالبرولتاريات ليس كافياً للحصول على المعرفة الكاملة، وعلى الرغم من أن هوركهايمر لم يقل بتلك النتيجة التي قال بها لوكاتش عندما أقر بأن الحزب الثوري سوف يجلب الوعي الصحيح للطبقة العاملة من الخارج، إلا أن هناك بعض التشابه بين هوركهايمر ولوكاتش يمكن استنتاجه من خلال مناقشة هوركهايمر، فهو يرى أن هناك علاجاً فاعلاً خارجياً هو المفكر النقدي، أو مدرسة الفكر النقدي التي تتعهد بمهمة نقل هذا الوعي للطبقة العاملة⁽¹³⁾.

ومن هذا الجانب، فإن للنظرية النقدية عند هوركهايمر وظيفة اجتماعية محددة هي: «نقد ما هو سائد»⁽¹⁴⁾. وبالتالي فإن الفلسفة لا يمكن أن تكون متصالحة مع الواقع، بالعكس إنها تعارض هذا الواقع وترفضه. ومعارضة الفلسفة للواقع، على هذا النحو هو البعد الناقى أو السالب للنظرية النقدية⁽¹⁵⁾، ولكن للنظرية النقدية جانب آخر هو الجانب الإيجابي أنها: «تستهدف تحرير الإنسان من العبودية». والعبودية التي يقصدها هوركهايمر هي عبودية الإنسان للأفكار والأشياء، يقول هوركهايمر: «الهدف الأساسى من هذا النقد هو الإحالة دون فقدان الإنسان لذاته فى تلك الأفكار، والأنشطة التى يسعى النظام السائد لغرسها فى أعضائه.. إن الفلسفة تواجه التناقضات التى يجد الإنسان فيها نفسه متورطاً إلى حد التعلق بأفكار ومفاهيم منعزلة فى الحياة اليومية.. إن هدف الفلسفة الغربية.. إلغاء ونفى إحادية البعد فى نظام آخر للفكر أكثر شمولية، وأكثر يسراً، وأكثر ملائمة للواقع»⁽¹⁶⁾.

وبرغم أن النظرية النقدية، تنتمى إلى ما يسميه النقاد بتيار الماركسية الجديدة، أو اليسار الجديد، إلا أننا لا نستطيع أن نصفها ببساطة على إنها نظرية ماركسية، فبرغم تصريحات هوركهايمر، ماركيز، وأدورنو المتكررة حول تشيعهم للماركسية، إلا أن حقيقة الأمر، إنهم لم ينظروا قط للماركسية، بوصفها نموذجاً يحتذى ولم يتخذوا منها نظرية للممارسة، وإنما اتخذوا منها فقط بداية أو منهج لتحليل ونقد الحضارة الصناعية المتقدمة، وهذا منحهم حرية فى الاستفادة من منابع فكرية أخرى، غير ماركسية، كالهيجلية، والكانتية، والوجودية، والفرويدية⁽¹⁷⁾.

من ناحية أخرى، سيطر هاجس الخوف من الخضوع للسلطات، أو الاحتواء في الواقع القائم على مفكرى المدرسة، بحيث جعلهم هذا الأمر يقاومون بشدة فكرة الانخراط تحت لواء أى حزب سياسى، ولذلك كان موقفهم من الحزبين الكبيرين فى ألمانيا: الحزب الشيوعى، والحزب الاشتراكى هو موقف نقدى فى أساسه⁽¹⁸⁾.

إن مدرسة فرانكفورت برغم اهتمامها بالقضايا السياسية والثورية، إلا أنها اخفتت فى الالتزام بالنظرية الماركسية، وظل تحليلها ينصب بشكل متسع على قضايا البناء الفوقى، ويفتقر بشكل أساسى لمناقشة القضايا الاقتصادية البحتة⁽¹⁹⁾. ولا يستثنى من هذا الأمر سوى «فريدريك بولوك»، كما لاحظ «زولتان تار»⁽²⁰⁾.

ويبدو أن مدرسة فرانكفورت تكفى بأن تعتبر نفسها حركة ثقافية ثورية، وهى فى نفس الوقت ترفض أن تكون مجرد نزعة إصلاحية، تقوم بترميم الواقع من داخله، بل هى حركة «نفى»، تصون الحاجة إلى تجاوز كامل للواقع القائم، وهى مع ذلك لا تزعم أنها تقدم لنا يوتوبيا إيجابية⁽²¹⁾.

إن مدرسة فرانكفورت فى صورتها النهائية هى تعبير عن فكر مأزوم، فهى بحق تعبر عن أزمة المثقف المعاصر فى عالم اختفى منه اليقين، واختلطت فيه المعايير وتضاربت المشاعر. إن مفكرى مدرسة فرانكفورت: هوركهايمر، ماركيز، أدورنو، فالتر بنيامين... وغيرهم من المثقفين القانطين، والباحثين فى نفس الوقت عن شعاع من أمل، هم رموز تجسد تلك الأزمة، فقد أقر معظمهم تقريبا، بسوداوية الواقع القائم، وانحسار الأمل، واستحالة الحلم الثورى (على الأقل فى الوقت الراهن).

4- ماذا يتبقى من النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت:

ترى هل استطاعت النظرية النقدية أن نفى بوعودها، وأن تصبح الأيديولوجية الثورية لكافة التيارات والجماعات المقهورة والمرفوضة فى المجتمع الغربى المعاصر، وفى العالم الثالث، خاصة جماعات الزنوج والمهمشين، والنساء، والأقليات المضطهدة والمرفوضة؟

هل استطاعت النظرية النقدية من خلال تبنيها للجدل السلبى فى معناه الهيجلى - الماركسى أن تتحول من قوة سلب ونفى بالمعنى الفكرى إلى قوة رفض واحتجاج بالمعنى السياسى؟

الإجابة - من وجهة نظرى - بالنفى. وبالرغم من أن مدرسة فرانكفورت قد

حققت قدراً من التفاعل بينها وبين بعض الجماعات السياسية كما حدث في الستينيات من القرن الماضي عندما تأثرت ثورة الطلبة بأفكار ماركيز، إلا أن هذا التفاعل لم يكن كافياً لكي تصبح النظرية النقدية بمفردها أيديولوجية الاحتجاج والرفض في القرن العشرين، ولم تستطع قوة الدفع الثوري الكامنة في النظرية النقدية أن تتجاوز الطابع الأكاديمي لها، ومع ذلك فلا يجب أن نطلب من النظرية النقدية كتيار فلسفي أن تتحول إلى الفعل بصورة مباشرة. فالأفكار لا يمكن أن تتحول إلى قوة فعل ما لم تتبناها طبقات أو جماعات اجتماعية، والفلسفة لا تصل إلى ذلك إلا من خلال العديد من الوسائط والوسائل الأخرى. وفي مقابل ذلك لا يستطيع أحداً أن ينكر أن النظرية النقدية قد تنبأت في وقت مبكر بشيخوخة النظرية الماركسية التقليدية، بمثل ما تنبأت بنهاية أسطورة البرولتاريات بوصفها الطبقة التي تحمل بيديها مفاتيح الخلاص من الجحيم الرأسمالي، أضف إلى ذلك أن نقد النظرية النقدية لثقافة السلعة ولزحف التشيؤ على حياة الإنسان المعاصر ما زال أكثر إلحاحاً في وقتنا الراهن من أي وقت مضى.

إن خطورة النظرية النقدية لا تكمن فقط في كونها مرحلة أو لحظة من لحظات تطور الحضارة الغربية، ولكن خطورتها تكمن في أنها تمثل العقل الغربي متمرداً على نفسه ومراجعاً لأطروحاته ومسلّماته، وهذا ما يفتقده العقل العربي الذي مازال يعاني حتى كتابة هذه السطور من عقدة النرجسية وعبادة الذات.

إن تأكيد النظرية النقدية على النقد هو بحد ذاته أمر مطلوب سواء كان هذا النقد فكرياً أو سياسياً. فالتأكيد على ممارسة النقد إنما ينطوي على رغبة في تجاوز الواقع، وعلى إيمان راسخ في أن التطور هو قانون الوجود. فالنقد يعني عدم الجمود أو الركود للوضع القائم، وهو يعني أيضاً أن الحياة تنطوي دائماً على النقص وإن الاكتمال فرضية مستحيلة في دنيا الواقع. والنقد من هذا الجانب دعوة لا تميل إلى ضرورة التغيير. ولعل المأزق العربي الراهن أحوج ما يكون إلى مراجعة الكثير من قيمنا الاجتماعية والثقافية والسياسية. ويتطلب من مثقفينا أن يكون لديهم الجسارة الكافية لتعرية الذات الحضارية، والقدرة على تطهيرها من كل ما استقر فيها من أوهام وأخطاء ومغالطات.

إننا نحتاج إلى ممارسة النقد في حياتنا اليومية، وفي معاهدنا العلمية، وفي قراءتنا للتراث، وفي نظرنا للمستقبل. وبدون ممارسة هذا النقد سنرتد مرة أخرى إلى شعوب تعيش على هامش التاريخ أو إن شئت خارج التاريخ.

المراجع

Mart Jay: The dialectical Imagination Little, Brown and -1
Company, London, 1973. P. 10.

Ibid. -2
P. 3.

David Hheld: Indroduction to Critical Theory, Hutchinson, -3
London, 1980. P. 19.

Max Horkheimer: Traditional and Critical Theory (in) -4
Horkheimer: Critical Theory, Selected Essay, Trans By
Matthaw J O'Connell and Others, Herder and Herder. Nre
York, 1972, PP. 196-197.

Phi Slater; Origin and Significance of the Frankfurt School. -5
Routledge & Kegan Poul, London, 1980, P. 26.

Bottomore: The Frankfurt School., Travistock Publication, -6
London and New York, 1984, P. 16.

-7 جيرار جان: من فرانكفورت إلى فرانكفورت، دراسة منشورة في مجلة المنار، العدد
الحادي عشر، نوفمبر 1985، ص 167.

Slater: Op. Cit., P. 47. -8

Loc. Cit. - 9

Bottomore: Op. Cit., P. 18. - 10

(* للمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: النظرية النقدية عند هريبرت ماركيزوز، دار التنوير،
بيروت، 1992.

Slater: Op. Cit., P. 15. -11

David Held: Op. Cit., P. 50. - 12

Bottomore: Op. Cit., P. 17.	- 13
Horkheimer: The Social Function of Philosophy (in) – M.H.: Critical Theory. P. 264.	14
Ibid. P. 257.	-15
Ibid, P. 265.	- 16
Leszek Kolakowshi: Main Currents of Marxism. Trans – By P.S. Falla, Oxford University Press, 1978. P. 341.	17
Loc. Cit.	-18
Phi Slater: Op. Cit., P. 47.	- 19
Zoltan School. The Critical Theories of M Horkheimer – and T.W. Adorno, Schocken Books. 1985. P. viii.	20
Kolakowski: Op. Cit., P. 342.	-21